قصة مصرية واقعية

فاطمـــــــة

بقلم الاديب عبد الحميد العمروسى

انحدرت فاطمة من صلب أبويها طفلة وضاءة الجبين مشرقة الوجه ، أخذت تتسوق طريق الحياة كزهرة مزدهرة تعلن عن نفسها بالرقة والملاحة؛ لا هم لها إلا تمضية الوقت، لعوبا طروبا مع زميلاتها وصويحباتها، وبفضل ما حبتها به الطبيعة من تاج الحسن والدلال أقر لها الفتيات عن طيبة خاطر بالرياسة فى كل أدوار اللعب، مع أن فيهن من يفقنها سنا ، ولكنها سنة الله طبعت النفوس على التطامن والخضوع أمام عظمة الجمال وأبهته ..

لم تك فتاتنا من فتيات القصور أو ربات الخدور، بل لم تك تملك من حطام الدنيا سوى بهجتها ورُوائها: روحا وخلقة وخلقا، وكم فى الفقيرات من يستحققن بجدارة تسخير بنات القصور بين أيديهن وتحت أقدامهن ..

عزمت أسرتها على الترحال ميممة القاهرة علها تجد فيها من أبواب الرزق مايسد مطالبها، وفى حى السيدة ألقت عصا التسيار ؛ وسعى رب الاسرة فى إلحاق ابنيه وبنته الثانية للخدمة فى البيوت ، وبقيت فاطمة سلوة وقرة عين ، وكأن سحرها أبى على أمها قبول زجها فى بيت تهان فيه وتضام ؛ فاحتفظت بها لتخصها بنصيب من العناية وافر؛ إذ تؤمل لها مستقبلا فى دولة الحسن والدلال . وإن من يرى الفرق بينها وبين بقية الاسرة ليحكم بأنها ورثت هذه الصورة من جدة عليا بعد أن توارت حقبة من الزمن ..

مرت الأيام يتلو بعضها بعضا، والأسرة يرفرف عليها طائر المحبة والهناءة: قانعة راضية لا تحتاج لى مزيد، ولا تطمع فى ادخار... وفجأة ، انقطع الرجل عن عمله وبقى الشهر والشهرين ممللا نفسه بالمنى فلم يعثر على ضالته ؛ ولم يجد عملا يرتزق منه ؛ وأصبحت أجرة أولاده لا تكفى المعيشة ؛ وصارت الأم أمام أمر واقع فاضطرت مرغمة بين اليأس والقنوط إلى إيداع ابنتها عند « ح . م. بك » مقابل إلحاق زوجها (بشغلة ميرى) . انصرم حبل الايام وانفرط عقد العام حتى سمح المخدوم وقبل تعيين أجرة لخادمته بعد الالحاح الشديد بالايماء تارة وبالاشارة أخرى. درجت فاطمة فى احضان البيت كطفلة يعهد إليها بحمل حقيبة محمود إلى المدرسة وملاقاته صبحا وللعودة معه عصرا . لم يجد الطفل الساذج غضاضة من تمضية وقت فراغه فى اللعب مع خادمته الخفيفة جريا فى الشوارع، واختباء فى الحديقة، وهروبا بين الدواليب كأفراخ العصافير تروض أنفسها

على الطراز ، أو كصغار الغزلان تجد لذة فى الجرى والقفز والعناق ، وكلما تقدمت الخادمة فى السن استروح غصنها وبرزت محاسنها؛ فأصبحت فتنة للناظرين ، ومحط أنظار المارين . وطمحت نفس محمود الفتية فى أن تبقى خادمته ملازمة له فى غدوه ورواحه كسابق عهدها، لكنها خضعت للتقاليد فأتزرت بالملاءة والتفت بها فى انتظام، فبدا وجه البدر ليلة تمه، وعلى جانب صفحة الجبين تدلت خصلة من الشعر هامسة فى قوس الحاجبين « إن هذا لسحر مبين » .

شب محمود فخرج من الحياة الهائجة المضطربة التى ليست لها غاية تدرك كما كان يتصورها، خرج إلى الحياة المحدودة ، الحياة الشخصية التى جعلته يحصر تفكيره فى نفسه، فألفى قلبه مليئا بالرغبات والميول ، والنزعات والاهواء ، وما زادته الأيام إلا تفتقا فى ذهنه ، وإرهافا فى أذنه ، وتحديدا فى مدركاته ، حتى أصبح شغوفا بسماع مايتفوه به الشباب فى المدرسة من أنواع الخلاعة وضروب الدعابة التى تجرى لهم مع جاراتهم ومرماحات الشوارع، فتيقظت عواطفه ، وأرغمته على تقديم الغذاء لها ، تبصص فى الطرقات فأكثر ماوقع عليه نظره وجوه سويت تتوءاتها، وملئت تجاعيدها بالاصباغ، والادهان، فعافت نفسه وأعرض ونأى بجانبه؛ ولما لم يجد فى الخارج مايطفىء ظمأه ، ويشبع نهمه الذى أيقظه خلاق السوء، لم يجد بدا من الالتجاء إلى طريق آخر . نظر فلم يلق إلا الكاعب الحسناء (فاطمة) فوقع بين نارين ، واضطرب بين سعيرين ، أيسمح لخادمته بأن تكون أول من يلج قلبه أم يكبت عواطفه ويكبح جماح ثورته ؟ لم يصل عقله وتبلغ به إرادته الى التغلب على وجدانه؛ وهو الحدث ربيب النعمة واليسار ، وباكورة أم أعقبته بنات بعد عقم طال ، فأولته حنانا زائدا ، وحبته شفقة فائقة ، واهمة أن فى رفع الرقابة عن ابنها وإطلاق أيديهما فى كل ما يصلان اليه ذريعة الى إسعادها ، وإنعاشا لروحهما ، وفتحا جديدا فى حياتهما الهنيئة ..

ازداد محمود عناية بهندامه ، وأكثر من الوقوف أمام المرآة ليطمئن الى وسامة طلعته ، ورشاقة بزته ، ثم فكر فى تلك التى تمكنت من التسلط على قلبه ، وإشغال لبه ، وفكر طويلا فى كيفية الوصول اليها ، وإعلامها بما يكنه لها ، بل من يضمن له أن تقابل المثل بالمثل فتبادله العواطف وتقاسمه اللواعج ، وهى الريفية التى من أخص صفاتها التحصن والعفاف ؟ وبالرغم من تجاوزها منتصف العقد الثانى مازالت تتبعه بعقيبته جريا وراء العادات القديمة البالية التى تركزت فى رءوس بعض المصريين الذين بلغ بهم جهل التربية الى الخوف على أولادهم مما لا يخاف منه فيشبون جبناء، متوا كان ذير واثقين من أنفسهم فتموت فيهم صفات الرجولة ، ويعيشون هيابين وجلين فيسبقهم غيرهم فى مضمار الحياة ممن أوتوا شجاعة وإقداما : وما الحياة الا للشجاع المقدام فى حزم ويقين ..

لجأ محمود الى ما يلجأ اليه كل غر فى دور المراهقة، فتارة يعرج فى طريقه على بائع الحلوى

فيرضى نفسه بواحدة وفاطمة باثنتين، وأخرى يلازمها ملازمة الظل لصاحبه مدفوعا بحرارة قلبه الثائر، وهو لا يجرؤ على مصارحتها ومكاشفتها، وثالثة يتحين الفرص ويكثر من إلقاء أوامره عليها، لاحبا في قضاء مطالب بل توقانا إلى محادثتها ومكالمتها، إذ كان يجد في ذلك بردا وسلاما على قلبه ، وفاطمة من طبيعتها الهدوء والسكون وحب العزلة مما يدل على الثبات والرزانة فكان ذلك مشملا لوله محمود فعظمت في عينه، ومرور الايام ضاعف شغفه بها فتعددت تمحلاته وتنوعت مبراته ..

لاحظت فاطمة على ابن سيدها تغيرا في سلوكه عن أيام الصبا وتبدلا في معاملته فدهشت وصمدت الى التفكير في الأمر ، ولكن سرعان ما تركت التفكير جانبا ، وغرتها الهدايا وأسرتها العطايا ، وأرجعت ذلك الى كرم الأبناء ، وسخاء الشبان الذين لا يعنيهم من أمر المعيشة إلا أنفسهم فعظمته وأحلته منزلة تليق به ، ومالت إليه ميل الفقير الى المحسن اليه ، وميل المريض الى من خلص حياته من براثن الموت : ميلا بريئا خالصا من شوائب الادران . رأى منها ذلك ففسره حسب هواه ، وظنها بدأت تحس وتشعر بما يختلج في صدره فتقدم في ميدان الجهاد جاعلا دروسه دبر أذنه وتحت قدمه وصار يختلس الاوقات ليجالسها ويلقى على أسماعها مايلذ له من الحوادث الغرامية التى كان يستمع اليها من خلانه فوقعت كلمات الحب والعشق والغرام في نفسها موقع البذور في الأرض الخصبة فشرعت في النماء شيئا فشيئا ومحمود يرودها بطيب هباته ومعسول حكاياته وخلب وعوده حتى ترعرعت الشجرة في حنايا صدرها وتفرعت أغصانها في حنايا ضلوعها، فكلما أحست بمحمود يكلمها، هبت رياح هيامها على أغصان الشجرة فحركت ذوائبها وعلا الصدر بنهوده وانخفض تبعا لحركاتها واستتبع ذلك تصعد الزفرات الحارة في رنين التنهدات الكاوية ..

وقفت السيدة على بعض السر وأدركت ما بين الفتى والفتاة من تبادل النظرات واختلاس الابتسامات، فلم تأخذ للأمر عدته ولم تحفل بالعاقبة، بل دفعها حنو الجاهلات المستهترات الى الاغضاء عن فتى يقوده النزق ويحدوه الطيش، فتفقدته عند الرقاد في إحدى الليالى فلم تجده في سريره ، فأطلت من نافذة الغرفة في الطابق الثانى على بهو خلف البيت لتسأل عنه الخادمة فوقفت عن السؤال فجأة حين أبصرت ماأذهلها، أبصرت غرفة المطبخ مضاءة وانسل من نافذتها ظل في حركة مستمرة، واقتراب وتباعد، فتتبعته بنظارها حتى أتت على آخره فاذا أيدى تمتد لتجذب وأخرى تنبسط لتدفع ، وإذا رأس للأمام تميل وأخرى للخلف تنخلع، ففطنت للأمر وأدركت سر الاشكال ، فنزلت مسرعة وبخطى خفيفة ، وحتى لاتفاجىء فتاها بما يرعبه أو ينخرط له قلبه تظاهرت بعدم المعرفة ، وقالت ضاحكة : لماذا تضرب خادمتك يامحمود ؟ ماذا فعلت بك فاطمة حتى يغضب عليك ؟ فكانت مفاجأة، وكان خجل احمرت منه الوجنات وتندت له الجباه ..

ضاق محمود ذرعا من تمنع فاطمة ولم يعد يستطيع صبراً على تجنبها، لا ينتفع بدرس ولا يفكر في كتاب، ولا يبعد التفكير عن ذهنه ليله ونهاره حتى برحه الوجد وأضناه الشوق وانتهى به الأمر أن رفت من المدرسة لرسوبه سنتين فما اهتم ولا حزن، ولم يهتم أو يحزن؟ ونفسه ثائرة، ونزعاته عطشى، وعقله عنف، وثروة أبيه فيها مطمع، وليس وراءها مترع... يئس منه أبوه ولم يدر من حبه شيئاً، فلم يبال بغضب أبيه مادامت له أم تحميه ومن شر العدوان تقيه..

زادت أوقات الخلوة بفاطمة بينها وبينه، يناجيها وتناجيه إذ وثقت من براق وعوده بأنه لها دون سواه، وهي له لن تتخطاه، خفزتها هذه الثقة وما ورثته من عفاف قروى إلى تحصين نفسها، والتحرز من سقطات نزعاتها فما كانت تلبي نداء الخلوة أو تستجيب لهاتف النقوة، وإذ قد تجاوز الفتى العشرين وبرزت حياته العقلية الرزينة نوعا ما، ونازعت منازع الوجدان منازعة ما... فكر في الأمر مليا علّه ينال حلا مرضيا: فاما سلو، وإما إقدام، فانتهى به التفكير إلى الضن بفاطمة، والحرص عليها من الافلات، وهي التي درجت معه من الصغر وشبت وترعرعا سويا:

علقتها غرا غلاما ناشئا غض الشباب وعلقتني جارية
حتى استوينا لم تزل لي خلة أبكي إذا ظعنت بعين باكية

وأصبح محمود لا يأبه بما يشترطه الشبان عند إرادة التبني على عروس من: ضياع وعقارات وأموال، بل عول على الثقة والجمال والاخلاص، وعد فقرها وهي متوجة بهذه الصفات محمدة أخرى يزدان بها مفرق الجبين. غابت عنه خليلته الهيفاء ليلتين في زيارة أسرتها فكانت أول مرة أحس فيها بنار البين تكوى كبده، وتلتهم صبره: فأدرك ألم الحب وذاق طعمه، وعرف كيف يكون في البدء سلوى وفي النهاية جمراً، لازمه السهاد، وعافه الرقاد، فطفق يقطع أرض الحجرة جيئة وذهابا، وأطل من النافذة فأبصر قرصا أبيض على بساط من زبرجد فأنشد:

قد قلت للبدر واستعبرت حين بدا يابدر مافيك لي من وجهها خلف
تبدو لنا كلما شئنا محاسنها وأنت تنقص أحيانا وتنكسف

فلما عادت الخليلة وهي عازمة: إما على إرجاع فتاها عن هذه الخطة التي طالت فطالت معها التباريح، وإما على الاقدام من طرقه المشروعة إذ قد طلب يدها كثيرون وإن لم يبلغوا معشار ما بلغ من الثراء والجاه، فوجهة نظرها أنها ترى سعادتها في الاخلاص المتبادل، والاتفاق في المحبة، ولما كانت أحكم منه عقلا وأجرا، أو مات إليه بدخيلة نفسها فصمم على تلبية ندائها، وإجابة متمناها، وطلب إليها التأني، ثم قصد أمه ـ وقد جرأته على عدم المداراة ـ فقال لها وهو يحاورها: اثنتان وعشرون سنة! ألا تكتفي للتفكير الآن في .... في أمر الزواج؟ فظنته

مازحا كعادته، وأخذت تجاريه ذاكرة له فتيات أغرابا وقريبات: وكل واحدة يسوئها في عين والدته ويأتي لها بحكايات مختلقة ، ولم يك ذلك في يوم أو يومين بل مرت أيام وهما يتحاوران حتى استطاع بخداعه أن يبذر بذور الجد والرغبة الحقيقية في زواجه في عقل أمه ، فهمت هي بالأمر وشاع خبر بحثها، ولكنه يعا كسها في كل من تذكرهن له حتى أيست ، بل حزنت أن لم تزوج ابنها وتتمتع بذراريه ؛ فاستغل هذا الظرف وكنى لها عن رغبته في التبني على . . . على... فاطمة... فمضت على تواجدها. ولا أمر في الحلق من بنان الندم!! وأدركت أنها أهملت وأخطأت حيال ابنها ، وعزمت على أن تحول بينه وبين مراميه ما استطاعت الى ذلك سبيلا واهمة أنه هاذ في قوله ، غير جاد في دعواه، فأحكمت المراقبة ، وجدت في التجسس، كل ذلك والأب على غير علم بالشرر الذي يتطاير في بيته ..

أحس الفتى والفتاة بما يحبك حولهما؛ فارتعدت فرائص فاطمة في حين ازدادا تعلقا وشغفا، تسليا بالدموع يسكبانها ، والزفرات يصعدانها وتمثل محمود بقوله :

ولو نظروا بين الجوانح والحشا رأوا من كتاب الحب في كبدي سطراً
ولو جربوا ماقد لقيت من الهوى إذا عذروني أو جعلت لهم عذرا

لم تغن التوسلات ، ولم تشفع التضرعات حتى أيسا من الخلاص وزاد يأس محمود إذ علم أن أباه قد علم بطليعة الخبر، فأرغى وأزبد ؛ وهدد وتوعد ، وشرع في البحث عن مأواه لطرد فاطمة، فلم ير الفتى إلا القوة يشهرها في وجه أبيه وأمه ليرغمهما على الخضوع لرأيه ، ولم يقصد بالقوة قولا يقوله ، أو سيفاً يسله ، أو سلاحا يصوبه، بل أمر آخر أمر وأوجع... عجل بالأمر وعجل ، وانتهز غطيط أبويه في نومهما وسارع الى الحسناء الكاعب في الطابق الأرضي فتذاكرا الخطر الذي ينذرهما، ويلوح لها بهد كيانهما، ثم أخذ يهدىء روعها كالغزال في شباك الصياد ، ويعدها بألا خوف عليها ؛ ويمنيها في إيقان وتأكيد حتى اطمأنت اليه، ومالت عليه، فضمها وطوقها، فغابا عن رشدهما وشملتهما غيبوبة الثورة، فلم يفيقا الا وقد حكم القدر حكمه وقضى الأمر المرير... الامر الذي كانت تخشاه الفتاة وتحذره ؛ الأمر الموجع لأبويه أيضا، فأوقفهما مشدوهين أمام الواقع فعجل الأب الى والدة الفتاة طالبا يدها بدعوى أنها تربت في أحضانهم ، ووثقوا منها ، ومالوا اليها، وليسوا من الذين يتأففون من مثيلاتها، فأبى والدها وتمنع ؛ معتقدا أن زواجها بنثير منه أجدى لها ، وأبقى على رابطة الزوجية، وما زالوا به جميعا حتى تنازل عن تمنعه ..

مرت أيام قلائل وبدأ منكر ونكير يعملان بحق على تخليص ابنهما من هذه الفقيرة التي تحط من قدر الأسرة ؛ وتسمها بسمة العار ، مغرورين بما ينعمان فيه من بذخ ورفة ، متناسين أن الحياة التي واتتهما ؛ وأسبغت عليهما حباءها قد تواتي فقيرة كهذه ، وترفعها فوق أترابها

وقريناتها . ضرب الفتى برأيها عرض الحائط بعد أن يئس من إقناعهما وتخطئة فكرتهما، فدب دبيب الغيرة فى قلب الأم ، وأخذت تصب جام غضبها على العروس فقابلتها هذه بالخضوع، والتفانى فى الطاعة والتجلة ، محاولة أن تبرهن لها على أن ستكون نعم العبد ونعم العشير ، ولما لم يجد كل ذلك لم تيأس بل اتفقت على التمارض لتنفرد فى بيت أبيها أياما، عل ثورة حماها وحماتها تهدأ ، وإيذاءها ينقطع ، وتبرمهما بابنهما ينمحى، فازدادت الأم الجهول ثورة على ثورة وحنقاً على حنق حتى تعب فؤادها ومرض قلبها فذبل جسمها ، ولازمت الفراش ، ولم تمهلها المقادير حتى تجرعت كأس تصرفها مريرة، وذهبت ضحية التشبث بأذيال زوج غنية موسرة لابنها . .

واصل الأب حبل التفكير فى الفرقة بين ابنه وبين من عاشرها فى صباه فراقت له، وخالطها فى شبابه فأحبها، وقنع بها كزوج فأخلص لها. ولما جاء الأب بعروس جديدة له تمهدت هذه بتشتيت الشمل، لا بين الفتى وفتاته؛ بل بين الوالد وابنه: فعمدت الى الفتى بالتقريع مرة ، وتذكيره بأمه أخرى ، وبالأمانى الطيبة ثالثة وبالحرمان من الميراث رابعة ، فلا عجب إن رأينا الذى أطبق على عروسه بين الشغاف والقلب، أن رأينا حدته تنكسر ، وشدة تمسكه بها تفتر ، وصلابته تتزعزع أمام هاتف ينعته بالعاق لأمه الجحود بأبيه . بانت منه فتاته وألفى نفسه فريدا وحيدا لا أم ولا زوج فنفر من زوج أبيه وشجر الخلاف بينه وبينها ، واعتقد أنها خدعته فاقترف أمرا إدا وأقدم على فعلة شنعاء ذهبت ضحيتها عروس ما أضمرت شرا ، وما حوت إلا طهرا، وبالتالى أخذت زوج الأب فى التخلص من الفتى كما تخلصت من فتاته فوسوست إلى الأب وسلطت شيطان إغرائها ، وبذا فقد البيت اثنين من مؤسسيه: أحدهما ضمه القبر مهموما، وثانيهما يشتغل الآن فى البحيرة بالكفاءة مطرودا، ثم فاطمة التى ما فتئت تبكى حظها وتندب بعلها ؛ وتنعى على المدنية ما فيها من تدهور وانحطاط .

لم يقف سيل الكارثة عند هذا، بل ما لبث الزوج حتى دب دبيب الشقاق بينها وبين زوجها، وكيف لها أن تستقر معه وهى الفتية الطروب وهو الرجل الكهل لم تجد فيه ما يشبع رغبتها، فبانت منه بعد أن سلبت يده وصبره وتركته كئيباً لا معين ولا نصير .

هكذا تأبى دولة الفساد الا الشيوع والذيوع بين طبقة المقتدرين فيصوبونها إلى نحور الضعفاء الوادعين ، فاما أن ينحدروا نحو حياة العربدة، وإما أن ينتهى أمرهم بمأساة كهذه قاضية على الظالم قبل المظلوم .

عبد الحميد العمروسى